وللجرح ترانيم حنان

قصة الجريح حسن عبد الله علي

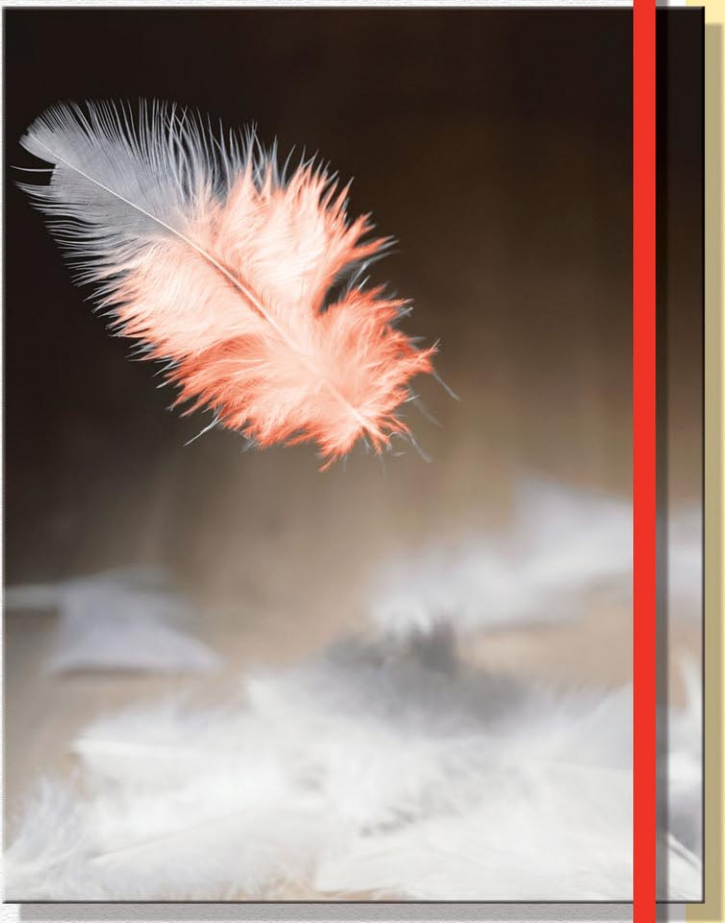

أمراء النصر والتحرير

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

وللجرح ترانيم حنان

تأليف: محمد غالب كجك

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام
هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٥٣/٢٤ . ٣٢٧/٢٥

- **القصة**: وللجرح ترانيم حنان.
- **قصة الجريح**: حسن عبد الله علي.
- **الكاتب**: محمد غالب كجك.
- **الدرجة**: نالت الدرجة الثالثة في المسابقة الثانية لأفضل قصة جريح التي نظمتها الوحدة الثقافية المركزية في حزب اللّه ومؤسسة الجرحى ورعتها بلدية برج البراجنة.
- **الناشر**: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.
- **الطبعة**: الاولى نيسان ٢٠٠٣م ـ صفر ١٤٢٤هـ.
  على نفقة بلدية برج البراجنة

الإهداء

إلى من نرصف جراحاتنا أمامه
جسراً وطريقاً مهيعاً لعبوره..
إلى من نحرق شموع العمر،
شمعة.. شمعة لظهوره..
إلى من بكى القيد شوقاً
لأرض حريته وسلامه ..
إلى الباكي بدل الدموع دماً
سيدي صاحب الزمان..
أرفع كلماتي مضمخة بالدموع ..
والشوق.. والحنين !!

قرية وصمود

... السماء صافية زرقاء ناعمة، لا بل أشد نقاوة من أي يوم مضى، والنسيم يتراقص بين ثنايا الأشجار، فتهتز مترنحة ولهى.. الطبيعة منغمسة في بحر من الهدوء والسكينة والوقار، لكأنها تؤكد لذاتها أنها أميرة من بنات الحياة، تتمختر في تمام بهائها أمام الكائنات المأخوذة بسحر الطبيعة الأم.. يوم ربيعي لطيف من أيام القرية، الناس كلهم في شغل فاكهون، هذا في الحقل يتفقد مخلفات الشتاء، وذاك يدعم حيطان زريبته، ويجمع متفقداً ماشيته، وآخر يرسم من جديد حدود البيدر.. الجماعة كلها انبثقت من ليالي السمر الشتوية المتكاسلة، إلى جد ونشاط أيام الربيع الفتية المشاغبة..

استيقظ «ربيع» في ذاك اليوم، وقام متكاسلاً يغسل وجهه بالماء البارد المنعش، وأخذ نفساً عميقاً من الهواء الربيعي الطافح بالعبير، ومن ثَم جلس أمام القفص يحدث نفسه: «نفس العينين.. يا سبحان الخالق.. أسود في أسود.. يا لطيف.. ونفس الشيطنة والذكاء.. إنني أشعر أنهما أخواي..» يُطعمهما برفق، ويضع لهما الماء.. ومن ثَم ينسحب بهدوء وتؤدة ووقار، هذان أجمل حجلين في الضيعة، والويل كل الويل لمن يتحرش بهما!!

مربوع القامة، والتسعة عشر ربيعاً لم تزده سوى فتوة ومآخاة بينه وبين الربيع، لكنه أسمر البشرة، أسود العينين، وسوادهما يخفيان في ظلمتيهما ذكاءا وحنكة كبيرين.. قوي البينة، مفتول العضلات، قد نقشت تقاسيمهما قسوة شغل العمار، فشغل العمار في بلادنا يصنع من المرء رجلاً ذا إرادة وتصميم..

قبَّل «المعلم ربيع» يدي أمه وخرج يريد ورشة في القنطرة «القرية المجاورة»، بسيارته الفولفو العتيدة.. وعندما بلغ عتبة الباب تناهى إلى أسماعه صوت أمه تحذره من اليهود والعملاء المنتشرين على طول الطرقات والمفترقات وتدعو له بالسلامة والتوفيق.. غص في قلبه ذكرهم، لكنه تمتم في نفسه: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب سينقلبون﴾!!

لم تكن معروفةً لدى الناس نوايا العدو، لأنهم في بادئ الأمر هُرعوا من واقعهم المقيت المملوء دماراً، إلى آخر ظنوا أن فيه الأمن والطمأنينة، والخير والسلام.. لكن تشهد الأرض والسماء، على أن اليهود منذ القدم لم يعقدوا سلاماً ولم يعطوا للبشر ذرة سلام ولا للحجر، ولا للماء ولا للشجر.. الدمار المستتر تحت ابتسامات الغيوم، سيقلب الغيوم يوماً ما، عاصفة هوجاء تدمر آمال من ينتظر بصبر هطول المطر!!

وصل «ربيع» إلى آخر الضيعة يحدوه الأمل بنهار

عمل مثمر بعد أن أقعده المرض طيلة ثلاثة أيام.. فما انزاح نظره عن الحقول المملوءة جَداً ونشاطاً، إلا بعد أن فاجأته أصوات غريبة عن أذنه التي ألفت السكينة والهدوء، أصوات جنازير الميركافا التي تصرخ في حشرجتها تعاليم التلمود.. نعم، أغنية الدمار، «ستدمر كل ما يقف في وجهها..» أجل، ستقتل كل دورة منها رجلاً من الغوييم.. تعاليمُ بغضيةٌ لئيمة!!

اقترب منهم قليلاً، أحس في داخل ذاته بهاتف يدعوه إلى الحذر والإحتياط، وصل قرب الـ(ويلّس) فأوقفه ضابط إسرائيلي قد رفع رأسه عالياً في السماء، ينظر بعنجهية وتكبر زائدين، نظر جيداً وإذا بأحمد شبلي ذاك المتصهين الوقح واقف متمسح بالضابط.. «إرجع عالضيعة.. يلا».. بصق الضابط هذه الكلمات بطرف شفتيه، ولوح بأطراف أصابعه أن يرجع إلى الخلف، كل هذا وحاجباه يتقافزان من فوق نظاراته السوداء، وشفتاه قد لوتهما العنجهية فأضحتا كالقوس تخرج منها الكلمات كالأفاعي تلسع من يسمعها.. وجف قلبه منهم، وقَفلِ راجعاً إلى القرية، بدأت نار الكره المحقة بالإشتعال في داخله، كيف يتكلم هذا الكائن مع رجل من جبل عامل بتكبر، نعم من جبل عامل، هذا الجبل الذي أوقع عن ظهره كل من سار عليه رافعاً راية التكبر والغرور، جبل عامل موئل الأعزاء والأحرار.. كل من يعيش فيه

يعلم أن في داخله قوة للتحرر بذر بذرتها الأولى أبو ذر في أنحاء الربذى، في أطراف الوحدة.. في كل عاملي أبو ذر يقف صامداً بوجه كل الطغاة!!

وصل إلى القرية، فرأى الأهالي، كل من يعرفهم، حتى الحاج أبو محمود العاجز، والحاجة أم علي المريضة، الشيخ الكبير، الطفل الصغير، الأم، الأب، وكل أبناء القرية.. عجيب هذا اليوم. دخل المنزل فرأى أمه تضبط الشال على رأسها، وتنتعل «البابوج»، وتقوم مسرعة نحو الباب، فوجئت به، المفروض أن يكون «ربيع» في العمل، لكن.. «أمي إلى أين؟!»، دمعت عينا والدته، وقالت بتنهيدة تحوي خلاصات المعارف: «عندما ترى المرأة تخرج قسراً من منزلها فاعلم أن الويل أتى..» عزَّ على «ربيع» أن يرى أمه العجوز تتعذب هكذا، وما أراد أن يتكلم معها، حتى سمع صوتا هائلاً خلفه.. نظر، فرأى الباب الخشبي قد انفلق قطعتين، بعد أن ركله أحد العتاة بفظاظة.. ودخلت مجموعة البيت بشكل همجي.. الويل لهم، وقفز عليهم يريد ضربهم، تعارك معهم قليلاً، لكنهم تكاثروا عليه متكالبين، فالتقطوه ومنعوا تحركه بعد أن كبلوه بالأصفاد، وانتصبوا واقفين في وسط الغرفة..

نبح أحدهم بصوت مقزز: «إنتو يا كلاب، يا.. يا.. ما قلنا لكم إنو التجمع بالحسينية.. ها؟!».

«ليه شو نحنا ملكك ولا» .. صاح «ربيع»، ودماء الغضب تغلي في شراييينه..

«إسكت، إنتو ملك صبابيتنا!!» وصفع «ربيع» كفاً.. أراد الرد، ولكن كانت سياطهم تنهال عليه..

نظر «ربيع» إليهم، إني أعرفهم، قسماً إني أعرفهم، هؤلاء الخونة الكلاب، قد عز عليهم أن يكبتوا طبيعتهم الحيوانية هذه.. سيحين حين القصاص.. سيمد اليهود أعناق العملاء أمام دباباتهم ويمرون عليها كيلا تتسخ جنازريهم، سيضعونهم فوق الدشم دشماً إضافية.. ومن ثم سيرمونهم، من يخون مرة في حياته، فلن يأمنه حتى العدو.. غالب ملحم، حسين قميرة، أحمد سعيد (أبو عميش) سنتقابل يوماً..

«يا جماعة، نحن نبلغكم رسالة الإسرائيلي: نحنا أقوى جيوش المنطقة، نحنا الجيش الذي لا يقهر.. وإياكم ثم إياكم إنو تفكروا توقفوا بوجنا.. واللي بيوقف معنا هوي الربحان»..

قالها أبو عميش، ومن ثم تقدم نحو القفص نظر جيداً، بلع «ربيع» ريقه، «يا حوينتهم.. البقية بحياتك»، أخذهم أبو عميش ليأكلهم على الغداء وهو ينظر برفعة وتكبر نحو «ربيع» المذهول... راح الحجل، أحلى حجل بالمنطقة!!

الصَّرخة المكتومة

في تلك الليلة، نامت الطبيعة على رماح من تذبذب وضياع، تعصف بها رياح لجية طافحة بالغضب والحنق.. العصافير تكومت على ذاتها مستجمعة بقايا الحنان المشتت في زوايا أجنحتها، والورود المسكينة أرخت أوراقها المتفاجئة من حدث اهتزت له تلابيب الفضاء المنقبضة، والربيع يجلس محزوناً كئيباً على فتات الرمل، يرثي أيامه الغابرة المحبورة.. أليم هذا المصاب، وطريق الألم إن فُتح لما انتهى إلا بما ابتدأ به.. وما أُخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة!!

وضع ظاهر كفيه تحت ذقنه، وسرح بنظره في البراري، يستجمع بقايا الجراح المنكوءة، وقطع الكرامة المثلومة، ويجمع بآهاته فتات العزة المهدورة.. مصاب الأرض هين، مصاب الحرية هين، لكن أن يداس القرآن وتنتهك حرمة بيت أبي عبد الله عليه السلام .. لن تحتمل السماء ولا الأرض ضحكاتهم الهستيرية المزعجة، ولن يطيب للكائنات عيشها ومنامها..

كيف ومن ينظر ومن يسمع هو «ربيع»، من أُشرب في قلبه حبّ الرحمن، من تشبعت نفسه بكلام القرآن وعشق الآل عليهم السلام .. قد حان الأوان، ها إن عباداً لنا أولي بأس شديد سيجوسون خلال الديار.. ويعيدون للأمة بهاء صورتها الأولى!!

إلتفت إلى أمه، أعيدي ما قاله العميل.. «إنتو بتبكوا هوني دموع، ونحنا من..»، إذاً يسبون وينجسون في الحسينية.. ماذا فعلوا بعد.. «فات لهون على البيت وسأل عن سلاح المخربين، قلتلو إنو نحنا جماعة فلاحين وفقراء، بس ما لحقت خلص كلامي حتى استهدى على الجفت، قلتلو مرخصة من الدولة، صار يحلفلي إنو رح يرجعها.. وأخذها غصباً عني وراح» .. تمتم «ربيع» في نفسه: «محتلين، وحرامية، وبيتصلبطو، وكذابين، ومجرمين، وانتهكوا حرمة المقدسات.. يا رب، يا رب بحق الحسين ساعدني انتصر للحسين!!».

وقضى ليلته يتململ بين جنبتي السكون والثورة، بين دفتي الهوان والعزة.. وما انفتق الفجر إلا عن معركة باطنية دارت رحاها على ساحة ذاته المتوترة القلقة، معركة ارتحلت فيها فلول الخوف من الوهم المطلق، من جنود الجهل المطبق، وأتت مكانها رايات جنود الرحمن تبحث في طريقها عن درب تبث فيها نداء الذات المنتصرة.. فما رست إلا في ميناء جنود يقاتلون بسلاح الدم، سلاح من هدي القرآن!!

وخلف السّراج يسير الجمع!!

اعتلى النسر قمة الجبل، وأخذ ينظر بتؤدة وروية إلى معالم الجبل، أوديته المقعرة، والسهل المحيط، الطرق

الملتوية والمستترة، الصخور المكشرة عن أنيابها، والأشجار القابعة طيلة السنين المتطاولة.. بسط جانحيه تحت لمعة الشمس المتأتية من بين طيات السديم، ونثر ريشه بأبهة تتعجرف على النسائم المتأرجحة ذعراً، المتمسحة بقوة بكتف الجبل.. سينقض على فريسته المتشيطنة المسكينة، سينقض عليها ويفنيها تباعاً بسرب إخوته النسور الكواسر.. هذه هي صورة الحياة التي تنتظر «ربيعاً» ورفاقه المجاهدين..

«لوين يا مسهل»، صاح الحاج أبو حسن بصوته الأجش المملوء دفءاً وحرارةً من داخل التبانة، «على الجامع يا حاج»، تمتمها «ربيع» بلهجة تضج بالطمأنينة والسلام الباطنيين، وتعلوان وجهه ووجنتيه المحمرتين.. خطى خطواته المثقلة، مشفوعة بدعوات أبيه الطافحة حناناً وتلهفاً.. تسبق أفكارهُ خطواته وتسيل غاضبة في دروب شتى، تصطدم تارة بعائق صلد، ويعترضها مطبات تارة أخرى.. ويدور فكره في فلك مدلهم المعالم، ثقيل الوطأة، وتتمايل ذاته في سفينة قلقه الوالجة إلى خضم يم متلاطم مطبق.. «يا الله ما هذه الحالة»، لكن سرعان ما تعوده تلك السكينة اللطيفة المحببة بعد كل جولة فكر وصراع، فتداوي ما ترشح من قلقه المقيت.. وهذا ما لم تألفه روح المداعبة التي طالما عرف بها..

«إنه شاب طيب، أكثر أوقاته في الجامع يصلي، وأكثر

أيامه صائم قائم، كله أخلاق وملؤه فضيلة.. لكن الأهم أن نفسه موئل العزة، وحصن الكرامة، عجيب ائتلاق النور في لجج الظلام على صغر قطره، وعجيب كيف تجذب كوة النور أشعة الظلام.. سأسير إلى موئل النور رغم بعده، سأسير رغم أني أعرف أني سألاقي قطعان آلام الوحشية.. ورغم كل تقديمات المحيط الفارغ..».

دخل «ربيع» المسجد، دخله ترتعش قدماه من وطأة اللحظة.. لكأنه أول مرة يدخل مسجداً، لكأنه أول لحظة يشعر فيها بالإنتقال من درجة لدرجة.. وكذا هو النسيم، ترتعش طياته منتعشة كلما ارتقت طبقة في الفضاء..

وما حال صلاته، صلاة تتفجر الطمأنينة من جوانبها.. وتنحدر السكينة من أحنائها..صلاة غريبة من بنات السالكين، لأول مرة تحمل له لقياهم!!

... صلى صلاته وجلس ينتظر الحاج مهدي..

ها هو «الحاج مهدي».. ماذا يريد مني، من أنا؟.. من هو؟.. ماذا أفعل؟.. أطل «الحاج مهدي» بابتسامة ناعمة محببة، ونظرات هادئة عميقة، سلم بصوت دافئ غريب، كصدى تكسر الأمواج في قعر وادٍ سحيق.. جلس جنبه، وبدأ يحدثه عن الماضي والحاضر والقادم، عمّن كانوا مذ وجدوا دماراً وفساداً.

مضت الساعة.. والساعتان.. و«ربيع» تتموج فوق

جبينه طيات رذاذ العرق تارة، وتلتحف شفتاه بابتسامة رقيقة تارة أخرى.. يتربع القلق فوق هامته فيحني رأسه آناً، ومن ثم يبث فيه مَلَك الثبات قبساً من عزمه آناً آخر، فينفخ صدره بالكبرياء رافعاً رأسه عالياً كما يرفع المقاتل رأسه بعد أن تربع انتصاره فوق جسور من التعب والنَصَب.. عجيبة هي هذه اللحظة، وأعجب منها أن يتملك المرء جذبة روحانية، تطفئ مجاعته الروحية المزمنة بعبق من سلافها العتيق أصلاً!

انتهى اللقاء المرتقب كحلم مشوش الأجزاء، لذيذ النهاية، تصافحا بحرارة، قبَّلا وجنتي بعضهما.. ضم الحاج مهدي «ربيعاً» الغارق في لآلئ من دموع خجلة مترقرقة إلى صدره.. وقال له: «أهلاً بك.. أهلاً بك إلى عالم لا نرى فيه هذا المحبس المادي إلا ذرة حقيرة وضعت على رفوف الذكرى.. فلتستعد للحياة الآتية، التي تحمل روح التحدي والشجاعة، حياة الجهاد والمقاومة، ومهمتك عزيزي «ربيع»، أن تكون دليلاً ومستطلعاً لمجموعات المجاهدين في كمائنهم وعملياتهم..!».

أدار محرك سيارته، وأحاط بذراعيه المقود، وألقى بذقنه فوقهما، وأخذ ينظر إلى البرية الواسعة، نظر أمامه إلى الأودية والسهول، وتذكر أيام الطفولة، أيام الشقاوة البريئة، أيام طهارة العبث.. تلك الأكمة تشهد، وتلك الخلة تقول، ذاك الوادي يحدث، وتلك الخميلة

تحمل بين سيقان أشجارها وورودها ضحكاتنا وأصواتنا، وبقايا أشباحنا اللاهية اللاعبة.. «قد حان حين القطاف، وأثمرت البيادر، فكل ما رأته عيناي من طريق مختف، ومضيق غائب، كهف واسع، أو جب عميق.. سأستظهره من الآن وصاعداً.. مجدداً.. بهاتين العينين، وهاتين القدمين!! كنت أسير فيما مضى كاليعسوب أمام رفاقي، أدخلهم في متاهات الوادي، وأخرجهم من منافذ لا يعلمها إلا الجن، والآن شغل العمار أزكى ذاكرتي بآلاف من صور الطرق والدروب.. إذاً سأستمر أدخل رفاقي في التواءات الوادي، وأوصلهم للعدو، أوصلهم إلى عين العاصفة، فيثيرون هناك زوابع من نار وحديد، ويقضون بقوة على الدخيل إلى ربوع لم تألف البربرية والتوحش.. بل تمسحت بأعتاب البسمة، والكلمة الطيبة، وسهرات القرية الأنيسة!».

.. قد أشعل مهدي في عالم «ربيع» عموداً من نور أريجي، يرتفع في ذاته، حتى العلاء، ويسير في بقاعها المظلمة المدلهمة، فتنكشف لـ«ربيع» المعالم والأحجام، لم يكن يعرف أن في كيانه كل هذه المعارج اليقينية نحو المطلق، ولم يكن يعرف أن فيه تلك القلل المرتفعة من الشجاعة والعزة.. هكذا إذاً قتلة الأنبياء، قَتْلُهم أول خطوة في درب التمهيد لظهور الإمام المهدي عليه السلام.. ولم يزدهم الأمد إلا فساداً وطغياناً، ولم يبن فيهم إلا معابد

للطاغوت تزداد هالتها السوداء الشريرة يوماً عن يوم.. إذن قد عرفت محط قدمي في دار الإنتقال هذه، وعرفت كيف أنتقم لمن روّع العُجَّز، وقتل الأطفال والرضّع، وذبح الرجال والنساء والشيوخ، وتعرض للحرائر والأعراض.. عرفت كيف أرضي ربي عني.. أنا خميني إذاً، ونحن الخمينيون أمة حزب الله، وحزب الله هم الغالبون.. وهل يوجد أسمى من هكذا وعد، وأرفع من ذلك العطاء!!

هكذا طوى «ربيع» صفحة بريئة فطرية من صفحات عمره، وفتح أخرى بيضاء نقية، وقام على شرفة المستقبل، ينظر بعين تختلج من الطمأنينة، إلى مجهول قادم إليه صنعه هو بنفسه، وإن كان المجهول معروفاً واحداً من هذه: الجراح، الشهادة، النصر!

وبهذه الخطوة، حصلت المقاومة على الدليل الفطن، الذي يعرف حقول الألغام والأسلاك والمنظار الليلي، في وقت كانت فيه الخبرة العسكرية غير متوفرة بشكل كاف، لذا كان هو الدليل الخبير، والإستطلاعي الفذ، والمقاتل الشرس، والمؤمن المتأهب دوماً فوق فوهة البندقية، وسيتبين الأمر بعد حين!!

لحظات الحنين

«صباح الخير يا حاجة، شو صاير عليكِ من وج الضو»، قالت والدته أم حسن متنهدة: «جليات ومَنَّا

نجليهن..»، تقدم «ربيع» منها باسماً، وطبع قبلة على جبهة العجوز المرهقة، ومن ثم تناول يدها المبللة وقبلها «رضاك يا أمي.. رضاك..» .. أغلقت أم حسن الحنفية قليلاً، ونظرت إليه بتمعن، «ربيع» أصبح كثير البر بها، لا يكاد يمر بجنبها أو يراها، إلا ويقبلها ويطلب منها الدعاء والرضا.. وكذا الأمر مع والده، قد يؤخر «ربيع» عمله فيما يساعد أباه في الحقل، وعندما يعود يجلس معه ساعات طوال في السهرة يتقرب إليه ويمازحه.. الوضع غريب، وليست غرابته بذات سوء، بل إن الحقل الخالي من الورود، سرعان ما يلفت إليه الأنظار عندما تترشح من بين صخوره وردة عذبة الرحيق، أو نبتة لطيفة المنظر.. «الله يستر» تمتمت في صمتها هذه الكلمات، ومن بعد قالت «يرضى عليك وعلى اللي خلفوك».. ضحك «ربيع» وقام غاسلاً وجهه ويديه، لابساً ثياب العمل، ومن ثم نزل إلى التخشيبة، وأخرج منها تحت جنح غشاء الفجر، الأسلحة والعتاد والذخيرة، ووضعها في الصندوق.. ووقف سانداً ظهره على جنب السيارة، تاركاً لجسده التمايل مع نسيمات الفجر.. يا لأبهة هذا الفجر الجديد، ويا لروعة كل ما يحمله من سعادة.. وفي غمرة التأمل، انطلق لسانه بالدعاء: «سيدي يا أبا عبد الله، أسأل اللّه بحقك عنده، بشأنك الذي لا أعرف له رتبة لصغر خطري وعلمي، وأسألك أن

تشفع لي عند الله وتهديني شهادة كشهادة أخيك أبي الفضل العباس، شهادة لربما لا أستحقها، ولكن يا رب يقيني بجزيل موهبتك وسعة رحمتك لا يفارقني!!»..

انتعش باكياً، ربما لأن صرخة كهذه قد ترددت في ذاته، وأطبق عليها طيلة سنين وشهور، حتى أصبح الترداد الباطني كتلة من ألم لذيذ، تدحرجت على خده دمعة تتلوها دمعة أخرى، تتلوان ترنيمة الفجر، وابتهالات الشروق، أنشودة لم يسبر أغوارها سوى حفنة ممن ساروا في طريق الألم.. والأمل.

رجع «ربيع» إلى أمه، وجثا أمامها، رسم بسمته المعهودة وقال: «أمي أريد أن أتزوج، على سنة الله ورسوله!!»، ذهلت أم حسن، ماذا دهى هذا الفتى، «تريد أن تتزوج.. خير يا ابني، مين هيي المحروسة؟!»، «يا أمي، كنت أفكر ببنت حلال من القصير.. على كل حال بس أرجع من الشغل منحكي..»، سكت «ربيع» قليلاً، وأردف قائلاً «ويمكن أرجع مزوج يا أمي»، «قال مجنون يحكي وعاقل يسمع، قال بدو يتزوج بالشغل قال؟!» قالت أم حسن باسمة ممازحة إياه.. ولم تدر ما يقصد بـ«العمل»، ومن يقصد بـ«العروس»..

ودع «ربيع» أمه وأباه وأخاه، قفل راجعاً، أشعل محرك السيارة، وذهب إلى الضيعة..«شو يا معلم «ربيع»، لوين محمل كل هالمورين والحديد، شايفلك السيارة

حتنفجر؟!».. صاح أبو علي من داخل حانوته الصغير.. «قول الله يا ابو علي، عم نهرب من الشغل والشغل لاحقنا، وبتوصي شي من القنطرة» قالها وضغط على البنزين، فطارت مسرعةً تأكل دواليبها الأرض أكلاً..

ولم يخطر على بال أبو علي أن يسأل «ربيعاً» كيف سيمر من خلال الحواجز والدوريات المنتشرة على طول الطريق السوداء.. إذ أن القبضة الحديدية ألجمت الناس في بيوتها، وامتنعت الناس من الخروج، ولزم كل من الناس قبضة الحياة الباقية بين جنبيه..

وأما «ربيع»، ومن ذا الذي لا يعرف المعلم «ربيع»، يوماً تراه في ورشة في الصوانة، وآخر في القنطرة، والعديسة و.. و.. إلى آخرها من القرى، يعرفه معظم أهلها، ويعرف معظمهم، لذا فلا عجب أن أتى الإحتلال، وطفا على وجه طوفانه من الزبد ما يعرفه، طفا أولئك الذين كان يبني لهم بيوتهم، كان يضحك معهم ويتكلم عن الماضي، والآن بانت الشوكة المختفية تحت ظل الورود كم هي مؤذية عندما تفضحها الريح.. يعرفهم ويعرفونه، لذا كانوا يدعونه يمر بسيارته بالغنى عن كل الناس، وهو يمر راسماً على وجهه ابتسامة عريضة، يظنها اللحدي ابتسامة شكر، وما هي بشكر، وإنما هي أدنى أنواع الإبتسامات، ابتسامة الشفقة.. يمر جنبهم، فتصطدم الأسلحة ببعضها، فيقول لهم شارحاً:

«مصلحة مكركعة»، ويتمتم بكلمات التوكل على الله، مع ابتسامة تغطي كل موجات الغضب المستترة.. كان يتركها ربانية، ودائما ما كان يقول عندما ينبهه الإخوة لذلك: «الله بدو ينصر حزبو.. ونحنا بحزب الله ما بتفرق معنا عشان الله معنا!»..!!

مجموعة الجهاد..الشهادة

وصل إلى قريته عند المساء، وذهب إلى منزل نضال في آخر تلال الضيعة، مكانه مخفي أمين.. أركن السيارة قرب المنزل، ونزل ليلتقي الإخوان.

«يا الله، السلام عليكم ورحمة الله.. كيف الإخوان؟!»..

قفز إليه نضال، وقبله بين عينيه «أين كنت يا «ربيع»، لقد قلقنا عليك طيلة فترة غيابك، وهل لا تحزن الوردة على فراق فراشتها المترددة إليها أبداً؟!».. «سامحونا يا جماعة، كان عندي ورشة عمار صغيرة بالصوانة خلصتها وجيتلكم».. لحقه جواد بلطافة «آجركم الله أخ «ربيع»، يعني سيارتك وعملك ومستقبلك، كل ذلك في خدمة الإسلام بدون مقابل، ولتعلم أنه تعالى فضل المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً... إن لنا ـ إن كان الفتح على أيامنا ـ فضلاً ليس بعده فضل، وأجراً ليس فوقه أجر..» اغرورقت عينا «ربيع» بالدموع، فجلس في زاوية الغرفة يتأمل سفن الأحلام على شواطئ الدموع..

هي مجموعة كلها إما شهيد أو أسير أو جريح.. كلامهم همس لطيف، مزاحهم جميل خفيف، إذ انقضت أعمالهم بادروا إلى القرآن والصلاة خفافاً، وإذا أتى وقت الصلاة وجلت قلوبهم لهول الموقف وخطورة المقام.. قد تسمع لحن تسبيحهم يسيل من بين شفاههم ينابيع ربيعية متدفقة، لا يوقفها إلا شهقة ألم أو صيحة حنين.. مجموعة لا شيء يربطها بدنياها سوى كلمة واحدة، أن مت يا عبدي، فيموت.. مجلسهم أنس، ومن لم يجلس معهم كمجموعة لا يعرف ما أعنيه، وكلامهم شهد، ومن لم يسمع كلامهم، فليتنح جانباً ولا يعطني رأيه في ما لم يره أبداً.. إن أردت أن ترى دمعاً يترقرق بسهولة، كما يترقرق الماء النمير فوق صخرة ملساء، فليذكر أمامهم عطش الإمام الحسين عليه السلام، أو ضلع السيدة الزهراء عليها السلام وجنينها وحنينها، أو قل له إن الإمام المهدي عليه السلام لربما هو غير راضٍ عنك، وانظر إلى بدنه ورقة يابسة تهتز في مهب الريح.

اقترب حيدر من «ربيع» سلم عليه، وجلس جنبه..

«حدثني يا أخ «ربيع» عن عملية القنطرة الجديدة، ما كنت معكم، لأني ما تشرفت بخدمة الإمام المهدي عليه السلام مثلكم..» نظر «ربيع» إليه «طيب، إسمع واضحك.. بعدما استولينا على الموقع وأسرنا خمسة لحديين، صعدت إلى السطح، فإذ بأحد العملاء المستسلمين ينكب على رجلي

يريد أن يقبلهما، وهو يصيح أرجوك لا تقتلني أبوس رجليك ولا تقتلني.. فقلت له حينها: إننا كنا نسمعكم قبل قليل تغنون، وتصرخون من على دشم الموقع: من أقوى منا، اللي أقوى منا يجي لينا.. جينالك يا معتر!!».

«الذي يعمل في العمار يصله القليل من الغبار لكن أنت جئتني كلك دماء وغبار!!، شو قصة هالجملة يا معلم ربيع».. ومد حيدر العبارة كثيراً في فمه.. «عندما وقع الصاروخ بيننا، حين كنا في دورية استطلاع في رشاف ووقعنا في كمين، التحفنا تراب الأرض، وأصابتنا جراح كثيرة، لذلك عندما عدت ـ وكان أهلي لا يعرفون بعملي المقاوم ـ، رآني أبي، ووقف أمامي متعجباً من حالي.. وقال هذه الجملة المأثورة»..

«حسنا أريد منك خدمة أيضاً، أسرد علي قصة العقرب..»، قال حيدر هذه الجملة بصيغة طفولية محببة.. تبسم «ربيع» ولم يمانع أن يتابع الكلام، فإدخال السرور على قلب الإنسان المؤمن هو أكثر ما يجيد فعله.. «القصة وما فيها أنه في فترة معينة، لاحظ الشباب مرور دورية بصورة منتظمة قرب بيتنا، الذين طلبوا مني رصدها ومتابعتها.. مر يوم أو يومان، فاتفقت مع الشباب على أن الدورية إذا مرت تكون الإشارة لهم بنصب الكمين إنارة لمبة الغرفة.. دخلت الغرفة قبل ربع

ساعة من موعد مرورها المعتاد، وجلست قرب النافذة المدرعة بقضبان حديدة، أنقّل بصري بين أشباح التلال المنتشرة أعد الدقائق تترى.. بقيت خمس دقائق محدودة، وإذ أحسست بشيء يحبو على رجلي، ساحب معه قشعريرة باردة انتشرت في أنحاء جسمي، مددت يدي لأنزع ذلك المزعج الطارئ، فما مددت يدي إلا وكان العقرب يغرز بلؤم إبرته المحشوة سماً في باطن جلدي.. ولا تسل يا صاحبي عن ألمي، فلسعة العقرب شديدة جداً، وليست لسعة بعوض هزيل.. لكني لم أقدر أن ألحظه لشدة الظلام، والمكان ضيق، وأنا كُلفت أن أنير المصباح في حال مرور الدورية فقط!! لذا تحاملت على اللسعة ضاغطاً على مكانها، وقعدت أنتظر لحظة الفرج داعياً أن لا يتحنن العقرب علي مرة أخرى ويرسل لي أخت الأولى..

بعد هنيهات قليلة، سمعت صوت الآليات وكلام الجنود الغير مبالين، فأسرعت وأشعلت اللمبة، وتفرغت حينها للقضاء التام والتشفي من تلك الخبيثة البغيضة.. والشباب أكملوا مرحلة ما بعد «اللمبة»، وكان العشاء دسماً والصيد وفيراً».

انتهى «ربيع» كاشفاً عن مكان اللسعة، وقد ارتسمت على ساقه بقعة محمرة ملتهبة يتوسطها ثقب صغير..

غرق حيدر في تفكير وتأملٍ شديدين بعد القصص

التي سمعها منه مباشرة والتي سمعها عنه من الشباب أيضاً.. «ما الذي يدفع بهذا الشاب إلى التضحية بوقته بسعادة يتمناها جميع من في مثل عمره، ومن ثم كم ذا يحوي من قدرة وتحمل وثبات في أداء التكليف.. وما هي هذه العزة والكرامة التي تستوطنه وتملؤه عزماً ونشاطاً واستعداداً للبذل.. أكاد أقسم أني أعيش الآن مع شهيد حي ينتظر ساعة الوصال واللقاء!»..

استمر في تفكيره، ولم ينتعش إلا وقد ألقت الشمس بذاتها بين ذراعي الغيوم الغسقية، فاحمرت المسكينة المستسلمة لعاطفتها خجلاً، فانتثرت على ثيابها الزرقاء الحريرية نجوم تتألق من فرط الحياء، مغطية نفسها ببعض طيات الغيوم المتذبذبة..

وللمجاهدين ليالي عشقهم

هبط الليل متثائباً نعساً على التلال والروابي، القلقة طيلة النهار من تسلط الشمس وتجبُّرها.. مرخياً عليها بساطه الأسود الفخم الثقيل. فارتاعت الكائنات لهول وطأة هذا الزائر المتردد عليها منذ بدء الخليقة، ولم تقبل بسكينته وهدوءه الغريبين عن ضجة ونشاط النهار.. لكن ما تفعل والليل أمير من أمراء الزمن، يفعل ما يشاء متربعاً على رقعته المسكينة، فانسابت إلى جحورها، ودخلت أعشاشها هازئة في

صمتها من غلبة الليل المفروض.. ومن خلال طياته السديمية، تغامزت نجومه الثملى، متراقصة فرحة، توزع حنوها الدافئ على الآكام المتناثرة.. ومن بعيد، أضواء القرى المنتشرة كحبيبات سكر فوق قطعة سوداء، قد تلألأت فوق صفحة الأرض المنقبضة، فبانت كأنها سماء أخرى محدودة أمام تلك الغير محدودة، لها سكانها وخصائصها، والهواء ما بينهما مرسال ينقل ما يفلت من كل منهما، من خيوط ذهبية مشعة، وأحجام صاعدة وهابطة!!

.. هبط الليل، فسرى النسيم مترنحاً من فرط السُّكر، وقام يرقص طرباً بين حلقة من أشجار السنديان، مداعباً بطرفه بعض تكتلات الزعتر والبلان، ويهتز الكل متناغماً مع أنغام النسيم، فيمسي المكان روضة علوية للوصال، ومساحة كونية للسعادة!!

تطايرت بعض جدائل الليل السوداء عليه، فالتحفته وأغرقته في عمق طياتها، ولم يبق منه سوى نور من وجهه لا يراه إلا من اعتاد قلبه معاينة هكذا أنوار.. وطاله النسيم الماجن عابثاً بثيابه، راقصاً في فراغاتها مبدياً فرحته وهناءه..

أخذ «ربيع» نفساً عميقاً، وقبض على لحيته، فاستلهم من شذى النسيم سراً، قرع باب قلبه بسندان عظيم مهول!! النسيم يخبره أن الأنوار المجتمعة هناك في

المرمى البعيد، عائدة يوماً ما كلها لأصلها، وأن هذه الأشجار سترجع يوماً كلها بذرة واحدة تتغنى بالربيع من تحت ثلمات الأرض!!.. وغاب النسيم عنه لهنيهات يسيرة، أبحر فيها «ربيع» بمركبة شعوره، متحسساً قرب الفراق، وأن هذه الليلة هي للآخر ما قد تحمله رفوف الذكرى من وريقات الحنين.. إذاً كل هذا العطف والحنان الذي يراه بين عناصر الطبيعة، إنما هو رسالة حزينة مكبوتة ندية من دار تستوحش من قرب فراق من تحب، وتستنجد بإغراءات النسيم وتمايل الأشجار، أن يركن القوم عن مرادهم!..

دخل إلى الغرفة من جديد، بعد أن ملأ جراب عاطفته بمشاهد يرق لها الفؤاد اللطيف.. جلس ينظر إليهم تباعاً.. لا بل قل، أغشته دموعه المترقرقة لفرط الإنجذاب إليهم.. هذا قد أدنفه العشق فقام إلى مناجاة معشوقه في غياهب الليل، يصلي صلاة من عرف أن رفرف العروج قد انطوت أجنحته تحت قدميه، وهذه الصلاة آخر الزاد ما قبل الرحيل.. وذاك، ذاك قد انكب على صفحات القرآن ينهل من معين الدفء ما يطفئ به بقايا برودة الجسد والمادة، ويسكب فوق الورقات، فوق كل كلمة دمعة.. دمعة تورق لها جنائن الفؤاد، وتمحي بنداوتها المفعمة بالإيمان سحائب الوجل من الفراق.. وآخر قد طوى ركبيته، طاوياً معها كل مخلفات محيطه

المادي، وصرخ في كمه عسى أن لا يزعج رفاقه، وينادي بحرقة ولوعة، بشوق وعناد «اللهم اجعلني ممن دأبهم الإشتياق إليك والحنين، ودهرهم الزفرة والأنين...»، ويجهش بالبكاء، وينادي بعبرة وأسى «اللهم خذني إليك، فقد أضنى الحب بي لما يفرق بين روحي وذاتك، يا متعالي.. أصلح حالي..» وذاك يجلس، ينظر إلى الأعلى، وتغص في صدره الأنة، وتعلق في حنجرته الصرخة، ولسان حاله يقول: «ربي أجدبت العيون من الدموع، ونفذت مني طاقات الأنين، فإلى متى المشتكى، وإلى متى الحنين!!».. جثى «ربيع» لهول المنظر، وضرب بيده على صدره، وغرق هو الآخر في النحيب والبكاء..

تمخض الليل عن فجر جديد، وانقلب فيه أولئك الرهبان النساك، الذين كانت تميلهم النسمة أمام ربِّهم، إلى أسود قساورة، يكاد الصخر ينفلق لرؤيتهم، لا يهابون الموت وإن مسَّهم بأظافره.. لبسوا عليهم لامة الحرب، وهيَّؤوا السلاح والعدة، ومن ثم أخذوا يعانقون بعضهم ويبكون، لست أدري ما أسمي بكاء أسد لا يهاب شيئاً حتى الموت، ولكني لربما أعلم أن عشرة العمر، ورفقة السلاح، وإخوة الدين، قد رسمت بين أفئدتهم أوشجة تضغط على مآقيهم حينما تتنبّض القلوب بالشعور بالهجرة والفراق..

بعضهم أوصى الآخر بالدعاء والمسامحة، والبعض

الآخر اشترط على أحدهم بحق العشرة أن يزور قبره كل خميس، في آخر كل شهر ويقرأ عنده دعاء كميل، فإن دعاء كميل قد أصبح لحناً يصطخب في أعماق آذانهم، ولا ينفك يذكرهم بالعهد والميثاق.. وقام الجمع، تحفه أشباح أسراب السنونو، مهاجرة لاجئة إلى الله سبحانه وتعالى، مقبِّلة داخلة من تحت صفحات القرآن، ليكون الإنطلاق من عند كلام الخالق، إلى محل تجلِّيه ورضوانه..

فسحقاً لأصحاب السعير

.. موقع «برعشيت»، من المواقع الصعبة المنال جغرافياً، حيث إنه يتربع على قمة جبل كبير وعال، وصخوره متشققة متحفزة دوماً للأذية، وانحداره يزيد من صعوبة القيام بمهمة.. لكن ما وقف هذا الجبل يوماً بوجه أنصار أبي عبد الله الحسين عليه السلام، كما لم يقف «بئر كلاب» و«الدبشة» و«سجد» وغيرهم..

انطلقت القافلة نحوه، تسرع الخطى حثيثاً، تنتقل من تلة لتلة، تختبئ في ظل رابية، أو خلف حائط، مستترة من طائرة تزرع الجو جيئة وذهاباً، أو دورية تهبط في مسالك الأودية، لتعاود المسير من جديد.. العين مستلقية فوق فوهات البنادق، واليد تحتضن الزناد، والقلوب تلهج بالحمد والتسبيح، مغنية أغاني

الكفاح، أو سورة من سور القرآن.. الطريق وعرة خطرة، ومسالك الجبل ضيقة مهلكة، والعدو يتربص بأي عثرة قدم، أو زلة لسان..

صعد الحاج مهدي، مسؤول المجموعة، بهم طريقاً تلتف عليها نباتات العليق المتجدلة على بعضها، فأصاب حيدر من شوكة عليق خدشة طفيفة فوق جبينه، فسال منها دم يسير، تقدم منه «ربيع» وطبع قرب الجرح قبلة دافئة عطرة، لم يدرك هو ولا حتى حيدر، ما سر الطمأنينة التي بثتها هذه القبلة في نفسيهما، مع إدراكهما العميق بأن الشهادة والجراح هما اللذان يرسمان بالدم طريق النصر والفلاح..

.. اقتربت ساعة الصفر، وجاءت لحظة الوصال..

فكلّف الحاج مهدي اثنين من شباب الإستطلاع، وكانوا قد ارتدوا ثياب اللحديين، أن يصعدا إلى الموقع ويضعا أقراصاً منومة في الماء أو أي شراب آخر.. كان الوقت في بداية الصباح، فتسلل الشابان إلى المطبخ ووضعوا أقراص المنوم في إبريق الشاي.. وللمفاجأة السارة، التي هي ومثيلاتها تثلج قلوب المجاهدين، كان الشاي معدّاً لمن؟!.. كان معدّاً لمسؤول الموقع، العميل الوقح حسين قميرة.. وانصرف الشابان ينتظران لحظة الثأر..

بعد قليل، نام مسؤول الموقع، فهاج الرعاع وماجوا،

وقام بقية العملاء من داخل الدشم: نزل بعضهم إلى المطبخ، وآخرون صعدوا إلى السطح، يسكرون ويشربون الخمر، مالئين الوادي بأصداء السباب القذر، ويطلقون العبارات الوسخة والإهانات للمقاومين.. ولم يكفهم أنهم عديمو الأخلاق والإنسانية، إلا أنهم لا يمتون إلى الحياة العسكرية بصلة، ولا يليقون بمهام الجندية والعسكر أصلاً..!

نظر الحاج مهدي إلى الشباب، ورأوا في عينيه تلك الثورة التي تنتظر الشرارة الغيبية للإنفجار والتحرر.. الله.. محمد.. علي.. «الله أكبر.. يا أبا عبد الله.. يا زهراء..»، واختلطت الصرخات بأصداء القنابل والرصاص، لا بل تسابقت البيارق مع حناجر المقاومين، تطلق مع كل رصاصة نداءات الثأر الحسينية «لبيك يا أبا عبد الله» مجاوبة بصداها نداء الألم والإيمان «هل من ناصر ينصرني؟! »..

قفز العملاء المخبولون من فوق السطح، من فرط الفزع، يزحفون إلى جحورهم وأوكارهم لاهثين.. وأمام من؟ وبمواجهة من؟ فليوث حيدرة، وأشبال الكرار، لم يسمحوا لهم بالفرار والهروب، فهبوا عليهم في فورة الغضب الأصيل، وحصدوا في أول موجة من إعصار غضبهم، خمسة عملاء أنذال، لوثوا الأرض بدمهم النجس..

صعد «ربيع» إلى السطح، وجعل يتنقل بخفة ورزانة، وكأنه فهد صياد عتيق، بصر بأحمد سعيد «أبو عميش»، مختبئاً في الدشم خافضاً رأسه كالنعامة، ولا يكاد يظهر جسمه لأحد.. إقترب منه «ربيع»، متسللاً لا يكاد حذاؤه العسكري يصدر صوتاً.. وصل إلى قربه وصرخ به بأعلى صوت «سلِّم.. تسلم!!».. قفز أبو عميش من مكانه كالمجنون، والرعب قد أخذ منه مأخذاً عظيماً، جحظت عينا أبو عميش المحولتين، نظر إلى الواقف أمامه ولم يصدق أن الواقف أمامه هو «ربيع» ابن الحاج أبي حسن، هذا الذي قد دخل بيته في الماضي عنوة، وصفعه كفّاً بعد أن استغل ضعفه وتقييده بالأغلال، وأخذ منه غصباً زوج الحجل وأكلهما على عشائه.. مد يده في حالة هستيرية، قد زاد في إشعال وقودها رائحة الخمر التي فاحت بقوة في المكان، مد يده إلى سلاحه، وأراد أن يصوبه نحو «ربيع»، فما كان من «ربيع» إلا أن أفرغ بضع رصاصات بين عينيه فأرداه قتيلاً ذليلاً.. وقام الشباب يلقون القبض على العملاء المترنحين من فرط السكر، حيث كانوا يختبئون هنا وهناك، زاحفين نحو خندق ما أو كوة ما، يكادون يحفرون الأرض بأسنانهم وأظافرهم من شدة الخوف والهلع..

ارتفعت الراية الصفراء المظفّرة فوق دشم الموقع، تزغرد بصوت الريح بكل فخر وعزة أغنية الإنتصار..

وانصرفت المجموعة، مخلفةً وراءها موقعاً مدمراً، آخذة معها أسراها الستة وثلاثة سيارات محملة بالغنائم، بالأسلحة والذخائر..

رجع القوم من غزوتهم غانمين سالمين، تحمل بين طياتها راية رسول الله ﷺ وسيف الكرار، ذا الفقار.. غزوة موفقة مبرورة، داست فيه نعال المجاهدين على موقع برعشيت، وجبروته ومن فيه، ومن يقف وراءهم ..

هديَّة الباري، ورحلة البصيرة

في ذات اليوم، وفي أحد مراكز المقاومة، صُفت الغنائم في غرفة، وألقي العملاء الستة المأسورون في أخرى.. وفي زاوية هذه الغرفة، تقوقع كائن لا أدري إن كان هنالك شيء موجود أبعد منه عن الإنسانية والبشرية، ألا وهو العميل حسين قميرة، الذي أيقظه الشباب من نومه «الهنيء»، بعد أن فعلت أقراص المنوم فعلها.. هذا العميل، لمن لا يعلم من هو، هو الذي قتل السيد المجاهد عبد اللطيف الأمين، بدم بارد وجفن جامد.. وهو الذي ألقى بالشيخ حسين سرور بنفس اليدين الأثيمتين، والذي أنجاه الله بأعجوبة من الجب القديم!!

دخل الغرفة مسؤول المجموعة الحاج مهدي، وأخذ ينظر إليهم واحداً واحداً نظرة زرعت الموت الوشيك في أفئدتهم المدلهمّة.. تمتم الحاج مهدي في قلبه قليلاً

«هذا فلان، وهذا موسى شبلي أخو أحمد شبلي، أخوةٌ عميلة قذرة، وهذا حسين قميرة.. حسين قميرة!!!»، جحظت عينا الأخ المسؤول، فصرخ به مسرعاً: «حسين قميرة، تعا لهون».. ولم ينتظره ليقوم، فسحبه على وجهه سحباً إلى غرفة مجاورة..

طوال ساعة مريرة، وتحت تأثير الترهيب، إضافة إلى خوفه الشديد مما ارتكبته يداه.. إعترف حسين قميرة بمكان نوم ثلاثة من شياطين وأبالسة الإنس، ثلاثة من أقذر وأوسخ العملاء: «عقل هاشم، حسين عبد النبي وأحمد شبلي».. ثلاثة جزارين لا يشربون إلا الدم عوض الماء، ولا يسمعون إلا الصراخات والآهات عوض الموسيقى.. وقلما يشربون الماء، وقطعاً لا يسمعون الموسيقى..

.. سمعت المجموعة اعترافات العميل، فالتهبت في داخلهم تلك الحالة من العشق للباري، حالة تتعالى فوق إرهاصات التعب، وآلام الجهاد المرهقة، وتخلص متوجهة باندفاع وعزم نحو قدس الأقداس، ومحط الإشراق.. إلتأمت المجموعة من جديد، وتأهبت لفعل المستحيل.. أقصد أن قتل هؤلاء الثلاثة كان حلم الكثيرين ممن ديس على كرامتهم وعزتهم، وتعرضوا لأعراضهم، وذبحوا أعز الناس على قلوبهم.. وضعوا ثياب الجهاد عليهم من جديد، وحملوا أسلحتهم

وعتادهم الخفيف، تفيض أعينهم دمعاً من إحساسهم الغريب بقرب اللقاء وتمام الوصال..

سارت المجموعة في الليل الأليل.. تقطع المسافات في همة علوية، وأنفاس ملكوتية، تسرع الخطى خوف الفوت، تلهج ألسنتهم بالدعاء وطلب التوفيق.. وقد غطت طبقة العرق من الجهاد الأول، طبقة أخرى ندية عطرة، لا يشم شذاها وعبقها إلا المجاهدون المخلصون..

من تحت موقع «حداثا» وصولاً إلى دبل وعين إبل، مسير طويل لرهبان الليل، أسود الليل والنهار، ساعات أربع ونصف الساعة، تهز البدن هزاً لمن هو في كامل قوته، فكيف لمن قام بعملية بكل تلك العظمة والخطورة!!

كان المطلوب زرع عبوة في أسفل معبر باطون، يربط عين إبل بدبل، حيث يمر عليه موكب العملاء في سيارة «مرسيدس» بيضاء، للمبيت عند عقل هاشم في دبل.. وصلت المجموعة إلى المعبر.. ثلاثة إخوة مرهقين متعبين، يحملون بين أيديهم أسلحتهم، وطيور حشاشتهم المتأهب للرحيل من قيود الجسد، وعلى ظهورهم عبوة تزن خمسين كلغ تي. أن. تي، وثقل أحلام وأماني الأرض المنتظرة لشمس حرية تسطع من خلف بحيرة النجيع..

شرع الأخ المختص بتجهيز العبوة، والتف الشباب

حوله، يشاهدونه يربت عليها بلطف، ويضع لها الصاعق العتيد، ويشغله ويثبته على موجة محددة، ليفجرها لاسلكياً عند ساعة الصفر..

وفي تلك اللحظة، تسارعت وقائع المشهد الليلي بشكل لا يصدق.. تنحى «ربيع» في تلك اللحظة جانباً يريد قضاء حاجة، سار قليلاً، أعجبه نسيم الليل العليل البارد، وسمع صوت حفنة من الضفادع قد اتخذت الليل قيثارة تتلوا معها ترانيمها الساخرة.. سمع صوتاً جد بعيد وكأنه صوت دبابة، ولكنه كان بعيداً جداً ذلك أن «صوت الليل بيودي»، لحظات مرت وهو ينقل خطاه المعدودة، فوقع بصره على خزان ماء، هيكله حجر صخري أصفر قديم، وقد زينه شعاع القمر الأبيض اللجيني المتألق تلك الليلة، ببعض من أوسمته الحريرية، فازدان نصفه بالبياض، والنصف الآخر بسواد قاتم، فبان كأنه هلال يقبع في وسط البرية.. فلفت نظر «ربيع» إليه.. قَوِيَ صوت الدبابة، صوت الميركافا، وغاب عن بال الشباب أن للميركافا جهاز تفجير ألغام كاشف..

مرت لحظات سريعة قلقة، ودوى انفجار هائل عظيم، صوت مدوٍ استيقظت له كل القرى المجاورة، وخرجت له بنات الطبيعة من أعشاشها وأوكارها.. دوى الصوت، واشتعل الفضاء ضياءاً باهراً للحظات قليلة، وانفصم الجسر قطعتين محطمتين.. وفوق المكان، فوق فوارق

المادة والهيولى، إرتفعت روحاهما، روح الإثنين، فوق أجنحة نورانية زاهية، تقطر دماً، تقطر خلاصة عذاباتهم وآهاتهم، وتنثر برفق طيوب نصرها، إحدى الحسنيين، على الباقين من أشقاء الروح في الأرض.. وساحت في الأرض دماؤهم تجذب بعزم إخوتها، لتسيرها بعد مدة سيلاً يدحر بالدم والنجيع، المحتل الغاصب..

.. و«ربيع»، في تلك اللحظات العصيبة المتسارعة، كان بعيداً عن العبوة فقط عدة أمتار، في نقطة مقتل، وكان ما يزال ينظر بطرف عينه إلى الخزان القديم، مأخوذاً ببساطة وجمال الصورة، متسائلاً في نفسه عن سر وقعها الغريب في باطنه، ولم يعلم أن أيادي الغيب الحكيمة تمنحه آخر مشهدٍ لطيفٍ، قبل أن تسلب منه لذات حكمتها أداة بصره ورؤيته.. في تلك اللحظة العجيبة، أضيء الفضاء بذاك النور الباهر الذي اختطف وبكل بساطة، ملاكين اثنين إنسيين يزهر الإيمان في ربى أرواحهم الزكية.. ـ الشهيد علي بزي والشهيد محمد حيدر ـ فكّر في عقله بسرعة بديهية، وهو لا يعرف ما يحصل ولا ما يجري «هل الدنيا شتاء، ولكن الشهر حزيران ولا برق في حزيران، لا برق بكل هذه الشدة واللمعان..» لم يسمع صوت الإنفجار الهائل، فالصوت الحاد بكل موجاته الغاضبة اخترق حواجز

السمع، وملأ أصول أذنه بصمت وسكون، مختف وراء كل الضجة المتأتية، صمت يماثل صوت الأمواج المتكسرة المستديمة الحركة والتخبط، فلا يلتفت المرء إليها لشدة حضورها.. السماء المنتقلة من السواد البهيم إلى البياض الساطع، والصخب الطبيعي المتحول إلى الصمت المطبق، وحرارة كبيرة التحفته كاظمة أنفاسه، لاسعة أطراف بدنه بمكواة حرارية كبيرة، فأضحى ككرة نار تتقلب بين طيات الأثير.. ورماه الضغط من الموجة الإنفجارية في الوادي الملاصق للمعبر، فتعلق جسده متمزقاً بأسنة الصخور المشرئبة للفتك.. لحظة واحدة، أخذت منه أحبته، وسافرت بهم إلى عالم غير عالمه، لحظة واحدة، تمزق فيها الجسد السليم، وارتفعت فيها الروح، ولا أدري، درجات جليلة!!

مضت دقائق قليلة، بعد أن ثبت جسده في مكان واحد، وعاد السمع يجر أذياله بطيئاً إلى أذنيه، أمسى يسمع نقيق الضفادع المزعج هذه المرة، حاول أن يفتح عينيه، حاول أن يحرك جفنيه، قد ملأهما التراب مثاقيل عدة، أزاح بيده التراب عن عينه اليمين، أبصر السماء المغروسة بالنجوم مشوشة قليلاً، فحمد الله سبحانه وتعالى.. مد يده مرتجفة إلى عينه اليسرى، أحس بالتراب قد أضحى طيناً لزجاً، طيناً مائعاً، طيناً تصطرخ فيه أنوار لن يراها، بل أنوار فلتت من كوة البصر

إلى الفضاء الرحب، وضع يده على عينه، وضع إصبعه في وسطها، فتاه الإصبع في متاهات الفراغ اللزجة، وتولد الألم في قلبه، لن يعود يرى في إحداهما.. «الحمد لله.. أعطاني نعمته، ومن ثم استردها مني..»، تمتمها بأنّةٍ تختلط بها بقايا دموع ذرفها من عينه الأخرى، من فرط الإيمان بالتضحية والبذل.. وشعر بعدها بسائل حار يسيل من عينه، وينصب تحت ذقنه.. أخذ يمرر يده على أطراف جسده، آلمته كسور في رجليه، كسور عدة في كل رجل، وحروق قد حفرتها ألسنة اللهب على جلده، فخرقت في بعض المواضع إلى باطن اللحم.. والدم يخرج من بين ثلمات الجراح مترقرقاً إلى وجه الثرى، متغلغلاً إلى جذور النباتات العطشى، فيسقيها ماءاً سلسبيلاً منعشاً قد تفجر منذ لحظات من عمق الجراح.. ينبوع الألم يبذر الحياة في مجراه بسرعة أكثر منه من سائر الينابيع !!

إنقضت ساعة على الحادثة، والعدو لما يقترب بعد إلى مكان العملية،

نظر «ربيع» الجريح إلى سلاحه فرآه بعيداً عنه أمتاراً طويلة، ومال بنظره إلى الجسر فوجده قد تكسر قطعتين ولمّا تمر الفريسة عليه بعد... إزداد الدم بالفيض، فغدا المكان بحيرة حمراء قانية تتوسطه سفينة حية تلقي كل حمولة حشاشتها في البحيرة،

فتزداد البحيرة عظمة وتضمحل السفينة.. الجو بارد، والنسيم العليل قد أصبح سوطاً حاداً يلفح بلؤم عمق الجراحات المثلومة، والنزف المستمر يضعف قوى الجسد ويهلكها.. فزحف «ربيع» قليلاً، وجد قمحاً متراكماً قرب الحقل.. فانسل تحته يجمع شتات قوته المتناثرة، ويستعد مترقباً صباحاً أعتى بنوره من ظلمة هذا الليل البغيض..!

.. من الثانية عشرة والنصف ليلاً وحتى السادسة صباحاً، غنى الجرح أغنية حزينة متعَبة، واندلق كل موسيقاه الكئيبة فوق أتربة الجهاد.. مرت الليلة، استرجع فيها «ربيع» ذكريات ماضٍ قريب مفعم بالحنان والدفء، إخوة كانوا يسلكون طرق الكفاح معاً، والآن فرقت الجراح بينهم.. جاء الصباح يسحب قناديله المشتعلة بوجد وألم خلفه، فتهادت بعض من أشعة الشمس الملتوية بحزن على صفحة وجه «ربيع» التريبة، فانتبه الربيع للمستها المرتعشة، ونظر حواليه، فرأى ولشدة تعجبه فلاحاً من القرى المجاورة للعملية، وكان أهلها معروفين بعمالتهم، ينظر إليه بعينين مملوتين حقداً، ومن ثم لاذ بالفرار هارباً.

علم «ربيع» أن الفلاح نوى شراً، فأراد الإنسحاب من مكمنه، ولكن القوة خانته، فجثم في أرضه ينتظر ما يحمله إليه القدر من مفاجآت!!

وفوق الجراح.. ارتسمت جراح

مرت عشرة دقائق بطيئة ثقيلة، فلم يحس «ربيع» ولم يدر، إلا والمكان قد غص بالسيارات والآليات العسكرية، وبصر بينها بتلك السيارة الـ "المرسيدس" البيضاء.. فعلم حينها أنه سيواجه أحد أولئك الجزارين الثلاثة، الذي سيكون قد تجرع في ليلته من كؤوس الخوف والهلع ما قد لا يعلمه سوى الله..!!

امتلأ المكان بأصناف الجنود، وآليات قد استنفرت أحاطت بالمكان.. وفجأة لمح «ربيع» ببقايا عينه اليمنى، باب سيارة «المرسيدس البيضاء» قد فتح بشدة وعنف، ونزل منها رجل لم يكشف ضوء الصباح الضعيف عن ملامحه.. هبط من سيارته، يدب على الأرض دبيباً مهولاً، وحوله الحشد قد ساروا معه مسرعين، فتطاير التراب من تحت أقدامهم مكوناً سحابةً من الغبار زادت من الموقف شدة وصعوبة.. تقدم رويداً رويداً منه، وأمارات الخوف على وجهه قد رسمت لوحة مقتضبة لمقبرة أو شبح موت ما.. ها هي المسافة تتقلص، وها هو هذا الكائن يتبين من هو.. «اللهم اجعل قتلي على يد شرار خلقك، يا أرحم الراحمين..» رنّمها في ذاته، ونظر بعين واحدة، بالعين المتبقية، إلى أحمد شبلي.. وعادت كربلاء، تتجسد في كل يوم وكل أرض، بين كل حسين وكل يزيد.. وكما انطرح الإمام الحسين عليه السلام على التراب

ينتظر سيوف المنية، انطرح «ربيع» ينتظر شهادته على بساط من ألم وعذاب شديدين مرتقبين..

وقف فوقه أحمد شبلي، ذاك الهارب من مملكة الأخلاق والفضيلة، إلى سلطنة الرذيلة، ذاك الحقير العابد لفضلات موائد أسياده.. قد كان ليطير متناثراً جسده بالأمس لو أن العبوة انفجرت فيه.. لكز «ربيعاً» برجله، بعدما اطمئن أنه أعزل من السلاح.. وأخذ يسبه ويشتمه بألفاظ نابية حقيرة كقائلها.. ومن ثم أمسكه بتلابيبه، وسأله من هو، سأله عن اسمه، عن قريته، من هو الحزب الذي أرسله وبعثه.. و«ربيع» ينظر إليه بكل برودة وصمت، ترن في أذنه كلمة واحدة، كلمة التكليف الشرعي الذي أعطاهم إياه المسؤول في قيادة المقاومة، بأن «لا يفصحوا عن إسمهم وقريتهم لأحد إن وقعوا في الأسر».. القصة إذاً قصة طاعة ومعصية، قصة سخط الله ورضاه.. فلن يستطيع أحمد شبلي ولا غيره من البغاة أن يأخذوا مني كلمة.. تقطر الغضب من وجه أحمد شبلي حبيبات عرق ساخنة، فقفز كالمجنون في الهواء صارخاً صرخة هستيرية مرعبة، «طيب ما بدك تعترف.. ها؟».. ورفع سلاحه فوق جسد «ربيع»، وأطلق رصاصة على فخذه الأيمن.. خانت «ربيع» قواه، وذابت صرخة ألمه المتفجرة في داخله، ذابت تأوهاً لم يغادر شفتيه المخضبتين بحمرة فوق حمرتها.. «شو ما بدك

تقول شو اسمك، ولا يا واطي.. يا.. يا..» استجمع «ربيع» شتات القوى، وتمتمها كلمات جن له جنون أحمد شبلي.. «ولو قطعت لي راسي..» رفع أحمد شبلي سلاحه، وأخذ منه سيخ التنظيف، وتقدم نحو «ربيع».. جثا على صدره بركبتيه، ورفع السيخ في الهواء، وأهواه بكل لؤم وضغينة فوق عينه الأخرى، فوق آخر ضوء يترسب إلى بقعته المظلمة.. وانطفأ ضوؤها، وادلهم الفضاء بعيني «ربيع»، واشتد الألم.. لن يرى كل الوجوه الطيبة، لن يرى بقاعاً طالما أحبها وساح فيها.. لن.. لن يستطيع الجهاد مرة أخرى، غصت في قلبه هذه الفكرة، وأرخت بظلها الأليم فوق نفسه أكثر مما فعل الجرح ذاته.. «لن تعترف ها، لن تعترف».. مجنون مهووس بالقتل.. استل خنجره، وقطع به إبهم قدم «ربيع» المضرج بدمه.. هذه نهاية المطاف.. وإلى متى؟! وهل يستطيع تحمل كل قطعان الألم، هل يستطيع النهوض من جديد والسير على طريق الجهاد.. لن يستطيع «يا الله اختمها بالشهادة، وغطِ جراحاتي الفوارة بسيل دماء الشهادة.. يا رب العالمين..» كلمات لم يلفظها اللسان، وإنما نطقتها الروح بعد مخاض الألم الفظيع.. «احملوه.. يلا..» .. سمع «ربيع» صوت المجرم.. وما وجد نفسه إلا ملقى في سيارة مغلقة ظنها أنها «فان».. نسوه فترة من الزمن.. تأرجح فيها عزمه بين الإستسلام والإستمرار.. إنما هي

جراحات جسد زائل، فهل يستسلم خوفاً من أن يصيبه المزيد، كلا.. الأجر على قدر المشقة، وللصابرين المزيد..

سار الفان مسافة لا بأس بها، و«ربيع» تتقاذفه جوانب صندوقه، وقد أضنته صراخات الجراح.. وروحه قد استوحشت من فظاظة وإجرام ذاك العميل..

تحولت الحياة عنده ابتلاء يمتحنه الله به، فهانت عليه الآن أين يمضيها، وكيف يقضيها، وما ستعطيه ويعطيها.. المهم أن تمر الحياة سريعة دافعة به نحو محل رضوان الله تعالى.. ليس المهم أن يكون هو في قريته سليماً، أو في ساحات الوغى جريحاً، شهيداً.. أو بين قيود الأسر.. بين قيود الأسر!! أواه من تلكم القيود وما أقساها.. قد يحتمل المرء ظلمة السجن، وقساوة الحياة هناك، لكن الجهاد عزة وإباء، وفي السجن قد يذل المرء ويهان.. ما يحتمل «ربيع» كلمة خطأً توجه إليه، فكيف والسجن إهانات وبذاءة لسان..

وانقطع حبل تفكيره تحت أصوات ترجل العملاء من الفان..

سمع صوت ضرب بالمعاول، وتراب ينشال ويرمى.. مرت دقائق عدة،

وإذ بهم يحملونه ويرمونه في حفرة ضيقة، ويهددونه بالقتل، بالدفن حياً.. قد عاد القوم، إذاً، إلى جاهليتهم الأولى.. «لن أقول شيئاً.. لن أعترف!!».. صرخ بهم «ربيع»

غاضباً.. أراد أن ينهض من الحفرة، ولكن شدته الجراح، فتهاوى متهالكاً، ينتظر بصبر عجيب، غضبة القدر، وغدر الأشرار!!

.. سمع وقع أقدام قربه، ظن أن الساعة أتت.. لكنهم حملوه ورموه بكل وحشية في الفان.. وساروا من جديد، نحو بوابة المستقبل الغريبة، المفضية إلى عالم المفاجآت المهلكة فيه كعدد حبات التراب!!

..وعانق الجرح قيداً!!

وصل القوم إلى مرجعيون، وأجروا لـ«ربيع» بعض الإسعافات الأولية التي لا تسمن ولا تغني من جوع.. لم يرحموه في شدة ألمه، ولم يتركوه في خضم آهاته المثقلة بالحنين لأمه الواجفة القلقة.. يريدون منه فقط اسمه، لا شيء فقط إسمه، لا يريدون الإسم لذاته، ولكن لكي يكسروا به عنفوان هذا المقاتل الشرس ولو تحت نير الجراح.. بدؤوا بضربه بوحشية وقذارة لا توصف، حتى أن أحد العملاء ضربه بحديدة على رأسه، فكسر الصدغ، فازدادت الجراح جرحاً آخر، تألم له «ربيع»، لكأنه سكن بعد قليل، فالجراح والألم والتعذيب، الدم والتأوه والأنين، كلها أضحت جزءاً منه، كما أن اسمه «ربيع»، فإن الجرح والألم اسمه الآخر، حفرته النار والحديد على جلده وداخل لحمه..

لفظ بلسانه «حسين عوالي»، إسم مزيف اتخذه درعاً يداوي بدعائه تحته جراحاته ببلسم الصبر والتسليم.. بعد أن مل من الإهانات والضرب والتعذيب الوحشي غير المبرر.. يريدون اسماً، فليأخذوا منه ما يشاؤون من الأسماء..

لم تنفع الإسعافات مع جسده، الذي مزقت الحروق جلده إلى خرائط حمراء تميل إلى السواد، وخطوط بيضاء تفصل بين كل خريطة وأخرى.. فحملوه إلى مستشفى تل أبيب العسكري..

في تلك الفترة، حمل الإنتظار المقيت إلى قرية تولين، يقيناً بفقد «ربيع»، فصبت الحاجة أم حسن دموع وجدها وحزنها في كمها وبكت، عسى أن يمسي البكاء قطعة نار في فضاء العدم، لا يحمل أية ذكرى، بل يحمل فقط أملاً ضئيلاً بعودة من أودعته حشاشة عمرها.. عودة من تاهت عنه الأخبار ولم تصل إلى ميدان الحقيقة..

كانت ذكرى الأسبوع مهيبة.. الكل يفتقد «ربيع» المحبوب، ليس في بيته فقط، بل لدى كل من عرف «ربيعاً» وسجاياه..

أنصت «ربيع» قليلاً، فتيات يتكلمن العبرية، وصوت ملالات يدخل من الشباك، وقامت بعضهن بوضع أدوية ولفافات على الجراح والحروق..

«مستشفى تل أبيب العسكري.. يا رب أعني..» تمتم

«ربيع» هذه الكلمات وأغمض أشفار عينيه المطفأتين تحت تأثير أقراص المسكن التي أعطوه إياه بكثافة.. ذهبت النصف ساعة، وأخذ «ربيع» يفتح أشفار عينيه ويعود إلى الاستيقاظ مرة أخرى على صوت أبح أجش غليظ، يقرأ التقرير الطبي بصوت عربي، بلهجة جنوبية عرف «ربيع» منها من أي قرية هو هذا العميل «حروق بكل الجسم درجة ثالثة، طلقة في الفخذ اليمين، إبهم القدم اليمين مبتور، العينان مصابتان بشكل كلي، كسر في الصدغ، ستة كسور في الرجل اليمين..»، سكت قليلاً، ومن ثم وضع يده على رجل «ربيع» اليسرى، في منطقة برز فيه عظم رجله إلى الخارج، فضغط عليه إلى الداخل وصاح بشكل هستيري «وكذاب كبير كمان.. ها.. طيب أنا بعلمك كيف بيكون الصدق!!»..

تدهورت حالة «ربيع» الصحية، فوضع تحت العناية لمدة وجيزة عادت فيها إليه بعض من صحته وعافيته.. فسارع اليهود إلى نقله إلى مستشفى أو قل «ثكنة» مرجعيون، قبل أن يصيبه طارئ فيصبحون مطالبين بدمه.. وخسر ذاك العميل رهانه..

... ورموا ربيعاً على سرير الأسر، سرير ملازم لفترة سجنه..

وصرير السرير أضحى صدى تأوهه كلما أنّ أنة.. خُشَيْبَات السرير قد التفت حوله، يشربن من عين

جـراحـه الشـهـدية، ومـن ثم يلقين أنفـسـهن في بحـر النجيع الطافح بعد أن سكرن حتى الثمالة.. والنسيم قـد لازم الغـرفـة فـتـرة طويلة، يطوف آناً حـول «ربيع»، يداعب ثنايا شعره المجعدة بتكتلات الدم المتجمدة، وآناً يسكن لصـرخـة ألم مـدوية من قـاع جـرح يعـذب روح «ربيع».. الأسـر، مـفـردة العـذاب، الأمل، اليـأس.. أحـيـاناً التـمـسك بـالإيمان، وأحـيـاناً الخـضـوع للخـيـانة.. ومن يأسـرون؟! ومن يعـذبون؟!.. عـامليٌّ هـو هذا الفـتى، وفي نبـضـه حب المرتضى، فكيف يهـز الأسـر من عـزمـه، ويهـد التـقـييد من قوته.. وجـريح هو هذا العاملي، وجراحـه قد جُـبِلَت بهـا باقـات الألم، فـلا الألم بات يفـعل شـيـئـاً، ولا المزيد من الجراح!!

أربعــة أشـهـــر هي، لكنهـا عند «ربيع» لحظة واحـدة طويلة رتيبة، لحظة واحدة، تتشابه في بدايتها ووسطها ونهـايتـهـا، وكل أجزائهـا، لا يخـتـلف قـسم عن آخـر.. إلا بدمـعـة أملٍ، تمنعـهـا العـزة والكرامـة أن تـسـقـط أحـيـاناً، وأحـيـاناً تسـقـط في فضـاء روحـه فـتـمـسي أغنيـة بالغـة الحلاوة، تسلي وحدته اليتيمة المحزونة..

أربعة أشهر.. في الصباح والمساء، لا يذوق فيها الطعام إلا قليـلاً، والماء أقل منه، وهو مـا بـين «وجـبـات الطعـام»، يتجـرع فيهـا كلمات العـمـلاء النابية، وألفـاظهم البـذيئة.. بين وجبات الطعام، ينسل من واقعه القـاسي، ويعيش في

غيبوبة ما تحت الضرب والتعذيب، ويسرح في أودية التخيلات.

يتذكر أيام الطفولة اللذيذة، أيام كان يرى فيها شروق الشمس وهي تزحف لاهثة على أكتاف الجبال، أيام كان يرى غروب الشمس في فم البحر الأحمر القاني.. أيام كان يرى ابتسامة أمه، ونظرات أبيه الهادئة، وناي الراعي الشادي فوق أكتاف الوادي.. يفكر «ربيع» في ذاته، فيراها قد ارتقت درجات من الإيمان لا يرتقيها السالكون إلا بعد عمر طويل مديد، كانت له الجراح سلماً معراجيّاً نحو القرب من الباري.. فيحمد الله تعالى على جزيل نعمه!!

وللجرح الأسير فجر حرية!!

مضت أشهر العذاب الأربع، وجاءه نبأ الإفراج.. نبأ النبذ والطرد.. لم يستطع العدو أن يهضم هكذا صخرة صلبة صلدة، ولم يقدر أن يراها تعاند كل أمواجه ورياحه العاصفة.. فأُخرج من المستشفى، على سرير الأسر ذاته، واضعاً يده المقيدة وواضعاً قيده الحديدي على جسده المجروح، على كل جرحه، فامتزجت العناوين، وتناغمت المواضيع، فالتحم الجرح بالقيد، وعلت في الفضاء أغنية معنوية رائعة، توزع معاني الكرامة والعزة أينما سرت وحلت..

لم يصدق «ربيع» الأمر أبداً وظل مصراً على أن الأمر كذبة، تتعب نفسيته، كما يُتعب الضرب جسده.. على كلٍّ، أُخْرِجَ من مرجعيون، هزيل الجسد، قليل الحيلة، والتعب قد تفنن في رسم هالات سوداء داكنة تحت ما تبقى من عينيه.. أخرجوه إلى المناطق المحررة، إلى مستشفى جبل عامل، ومن ثم إلى الجامعة، وأخيراً إلى مستشفى الزهراء عليها السلام .. لم يصدق كل ما قالوه عن الأراضي المحررة، والتي كانت قبل إصابته واعتقاله مسرحاً لليهود والعملاء.. لا لم يصدق أحداً، ولم يخبر أحداً عن إسمه ولا عن بلدته..

سرت إلى أمه خبرية عنه، فهُرعت إلى المستشفى.. يرتجف في داخلها ذاك الفؤاد المسكين كطير صغير يخاف من ظل سبع، تسبق أمنيتها أقدامها، ويلهج لسانها بالترجي من الخالق أن يكون ذاك المجهول هو ابنها، هو ربيع.. دخلت غرفته مسرعة تكاد تقع على وجهها من فرط اللهفة والحنين.. تسمرت الأم الولهى على الباب، وشهقت شهقة تفاجؤٍ وتعجب.. من هو هذا الملقى على السرير؟.. ابنها «ربيع» أسمر اللون، ولكن ليس بهذا القدر الأسود المتفحِّم، ابنها «ربيع» ضخم الجثة لكن هذا الملقى هنا هزيل ضعيف، «ربيع» ابنها.. لم تفكر بشيء بعد، اقتربت منه قليلاً، أكثر فأكثر، وابتدأ اليقين يتربع فوق أنقاض الشك، هذا يشبه «ربيع» كثيراً،

نظرت إلى صدره المكشوف، تأنت في نظرتها، ومن ثم ألقت نفسها عليه وأخذت تبكي وتلطم خدها، في وسط دهشة الجميع واستغرابهم.. هو وشم أسود قد ارتسم فوق صدره وساماً تعرفه أمه به من بين كل الناس «يا ابني، يا قلبي.. يا حبيبي رد علي دخيلك..».

تمتم «ربيع».. «هو صوت أمي، أواه قد اشتقت لسماع صوتها.. هذه اليد الناعمة الطرية، المتشققة بعض الشيء، هي والله يدها.. وهذه الدمعة التي تساقطت على صدري تحمل ذات دفئها.. لكن، من الممكن أن يكون العملاء قد أتوا بها لأفتضح أنا.. سوف أصبر قليلاً..» ومن ثم صرخ: «لا لست أمي.. أريد أبو راغب.. هل تعرفون أبو راغب، إذا أتى هو فإنني قد أصدق أنني في الأراضي المحررة..» وغاب الجمع في ظلمات الترقب والإنتظار.. وربيع يشد على أسنانه لا يريد النحيب لفرط التشوق لمعانقة أمه وضمها..

مضت اللحظات العصيبة، أتى أبو راغب، «السلام عليكم يا أخ ربيع».. ولما سمع «ربيع» اسمه العسكري، ضجت الصرخة في صدره، وتفاعلت عناصر الثورة، وانكمشت الجراح على ذاتها.. فأطلق «ربيع» صرخة الحرية، صرخة الجراح المقهورة، صرخة الإيمان والمبدأ.. «الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر..»..

..وللجرح ترانيم حنان

في ذات صباح، وقف «ربيع» على شرفة المنزل، واضعاً ذقنه على ظاهر كفيه، ووجَّه رأسه نحو مسرى النسيم.. الصخور التي تفلقها العاصفة قطعاً، لا ترمى ولا تترك سدى، بل يُعمَّر بها تلك القلاع العظيمة لحماية الوطن، وكذا الجراح.. والنجوم التي قد يذهب ضوءها في فترة ما، لا تنسى، بل تبقى في الذاكرة علَماً منيراً لكل امرءٍ سار يوما تحت نورها.. تحت آلام الجراح..

... وتجتمع الجراحات من أنحاء الجسد، وتصنع من نفسها جرحاً واحداً، يستجمع فُتات القوة، ويطلق في دفعة واحدة سرمدية، ترنيمة رائعة توزع حنانها المفعم بالحب على باقي الجراح.. على باقي إخوان الكفاح.. فلا تسمع بعدها سوى كلمة واحدة: ... وللجرح ترانيم حنان!!

هوية جرح

الإســــــــــم:

حسن عبدالله علي.. وفي معظم الوقت مقاتل أتأهب لأي مسؤولية.

البلـــــــــــدة:

تولين... وكل البقاع الطيبة.

مكان وتاريخ الولادة:

١٩٦٢، تولين.. ولدت حقاً مع الجراح.. مذ أن عرفت نفسي.

الوضــع العائــلي:

متأهل، ولي ثلاثة أولاد.. ومستعد لكي أتبنى المزيد من الجراح.

آثــــار الجــــراح:

نزف وأوجاع منذ الإصابة، وفي الشتاء نزيف ونقص في القوة والمناعة.. وحالة معنوية رفيعة جداً..